الفصل الخامس

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ

كيف ؟

(١)

إذا أراد إنسان أن يدخل فى رحاب :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق » .

إذا أراد إنسان أن يتأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم فيحاول أن يقترب ما استطاع من :

« إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لله رَبِّ الْعَالَمِين ، لاَ شَرِيكَ لَهُ » .

إذا أراد الإنسان أن يدخل فى معنى « الإسلام » .

فكيف يبدأ ؟

ما هى الخطوة الأولى ؟

ما الطريق ؟

إنه يبدأ بالدخول فى النظام القرآنى ، والدخول فى النظام القرآنى ، معناه العزم المصمم على التخلى عما ليس بقرآن ، وهذا ما يسمى فى العرف الإسلامى أو النظام القرآنى : « التوبة » .

ولقد أمر الله فى القرآن بالتوبة وحث عليها وحبب فيها وأوجبها فى بعض الأحيان . .

والواقع أنها اللبنة الأولى فى الطريق إلى الله . وهى اللبنة الأولى فى طريق إسلام الوجه لله .

ولقد فتح الله باب التوبة على مصراعيه تفضلا منه ورحمة . يقول سبحانه ، فى حديث قدسى ، وفى أسلوب كله رأفة :

« يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعًا فاستغفرونى أغفر لكم » .

ويقول الله سبحانه وتعالى فى صورة من تجلى الرحمة ، وسعة من شمول الرأفة بالعباد :

« قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » (١) .

ويلى هذه الآية الكريمة ما يبين الطريق إلى المغفرة والرحمة فيقول سبحانه وتعالى :

« وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ » (٢) .

أى ارجعوا إلى الله بالتوبة وإسلام الوجه له ، ثم بين لهم الطريق الصحيح الذى يلى التوبة إذا صدقت بقوله تعالى :

« وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ » (٣) .

والله سبحانه وتعالى فى هذا يوجه الذين صدقوا فى توبتهم إلى أن يتبعوا أحسن ما أنزل إليهم من ربهم ، وإذا صدقت التوبة فإن هذا الصدق

---

(١) ٥٣ سورة الزمر .
(٢) ٥٤ سورة الزمر .
(٣) ٥٥ سورة الزمر .

يستتبع كلازم من لوازمه أن يستقيم الإنسان على الطريق . والله سبحانه وتعالى يسد على الذين يبين لهم الطريق باب المعاذير فيما بعد مهدداً تهديداً يقصد به حث الإنسان على أن يسارع بالتوبة الصادقة ، فهو تهديد من رحمن رحيم . يقول سبحانه :

« أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ، أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ، أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ »[1] .

فإذا ما قال الإنسان ذلك أو تعلل بأمثاله فإن الرد يأتيه من رب العزة ، حاسما قويًا :

« بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ »[2] .

ثم يبين الله سبحانه وتعالى حال الكافرين يوم القيامة فيقول :

« وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ » .

ويختم سبحانه هذه الآيات التي ترسم طريق المؤمن بما يبشر من اتبع الطريق وسلك سواء السبيل فيقول سبحانه :

« وَيُنَجِّي اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ » .

والآن ، قد وضح الطريق فهو أولا : التوبة ، وثانياً : اتباع أحسن ما أنزل الله . .

ولقد كان أسلافنا رضوان الله عليهم - متابعة للأوضاع الإسلامية - يبدأون أعمالهم الهامة بالتوبة الخالصة النصوح : لقد كانوا يبدأون أول

---

(١) ٥٦ - ٥٧ - ٥٨ - سورة الزمر .

(٢) ٥٩ - سورة الزمر .

شهر رمضان بالتوبة ، ويبدأون الحج بالتوبة . ولعل الكثير من ذوى البصائر قد لاحظوا أن الرحلة المباركة ، رحلة الإسراء والمعراج بدأت بشق الصدر ، وشق الصدر بالنسبة لنا : إنما هو التوبة الخالصة النصوح . لأن التوبة تطهر وطهر . وإذا تاب الإنسان فإن ذلك يكون بمثابة إتيان ملكين يشقان عن صدر الإنسان ويغسلانه بالثلج والبرد أو بماء زمزم : أى يطهرانه .

إن التوبة تطهر الإنسان من المعصية ، إنها تجب ما قبلها ، أى تزيله وتمحوه .

والتوبة التى من هذا النمط لها شروط لا بد من توافرها حتى تهيئ الإنسان لشق الطريق إلى الله تهيئة موفقة .

يقول الإمام النووى من كتاب رياض الصالحين :

قال العلماء : التوبة واجبة من كل ذنب .

فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحق آدمى فلها ثلاثة شروط :

أحدها : أن يقلع عن المعصية .

والثانى : أن يندم على فعلها .

والثالث : أن يعزم على ألا يعود إليها أبداً .

فإن فقد أحد الثلاثة لم تصح توبته .

وإن كانت المعصية تتعلق بآدمى فشروطها أربعة . هذه الثلاثة وأن يبرأ من حق صاحبها ، فإن كانت مالا أو نحوه رده إليه ، وإن كانت حد قذف ونحوه مكنه منه أو طلب عفوه ، وإن كانت غيبة استحله منها .

ويجب أن يتوب من جميع الذنوب .

فإن تاب من بعضها صحت توبته عند أهل الحق من ذلك الذنب وبقى عليه الباقى .

وقد تضافرت دلائل الكتاب والسنة وإجماع الأئمة على وجوب التوبة . .

قال الله تعالى :

« وَتُوبُوا إِلَىَ اللهِ جَمِيعاً أَيُّها الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » .

وقال تعالى :

« اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ » .

وقال تعالى :

« يَأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحاً » .

هـذا فيما يتعلق بالتوبة . وبقى الحديث فيما يتعلق باتبـاع أحسن ما أنزل الله .

(٢)

إن اتباع أحسن ما أنزل الله يبدأ بما كان يبدأ به رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الداخلين فى الإسلام . أعنى مواد البيعة .

روى الإمام البخارى رضى الله عنه من حديث عبادة بن الصامت رضى الله عنه . وكان عبادة شهد بدراً ، وهو أحد النقباء ليلة العقبة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ، وحوله جماعة من أصحابه :

« بايعونى على ألا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلـوا أولادكم ، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصوا فى معروف .

فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب فى الدنيا فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله فهو إلى الله إن شاء الله عفا عنه ، وإن شاء عاقبه ، فبايعناه على ذلك » .

وروى الإمام أحمد من حديث سلمى بنت قيس ، وكانت إحدى خالات رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وقد صلت معه القبلتين وكانت إحدى نساء بنى عدى بن النجـار ، قالت :

جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نبايعه فى نسوة من الأنصار ، فلما شرط علينا ألا نشرك بالله شيئاً ، ولا نسرق ، ولا نزنى ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه فى معروف ، قال : « ولا تغششن أزواجكن » .

قالت : فبايعناه ، ثم انصرفنا ، فقلت لامرأة منهن :

ارجعى فسلى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : ما غش أزواجنا ؟ فسألته ، فقال :

« تأخذ ماله فتحابى به غيره » .

ولقد وردت بيعة النساء فى القرآن الكريم ، يقول تعالى :

« يَأَيُّهَا النَّبِىُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَلاَّ يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئاً ، وَلاَ يَسْرِقْنَ ، وَلاَ يَزْنِينَ ، وَلاَ يَقْتُلْنَ أَوْلاَدَهُنَّ ، وَلاَ يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ، وَلاَ يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ ، إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » .

ومما يفصل هذه البيعة قوله تعالى :

« قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ، وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ، وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ

مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ، وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَها ، وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ، وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا ، ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ، وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » .

وإذا أردنا إجمالا للتعاليم الإسلامية من القرآن الكريم فهو قوله تعالى :

« إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى ، وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » .

وهذه الآية الكريمة ألف فيها الإمام العز بن عبد السلام — كما يقول صاحب كتاب النصيحة العلوية - كتاباً بين فيه أن هذه الآية اشتملت على جميع الأحكام الشرعية ، وبين ذلك فى سائر الأبواب الفقهية وسمى ذلك « كتاب الشجرة » .

هذا والقصص التالية تلقى بعض الأضواء على هذا الموضوع : موضوع اتباع أحسن ما أنزل الله .

لما ظهر النبي صلى الله عليه وسلم بمكة ، ودعا إلى الإسلام ، بعث أكثم بن صيفى ابنه : « حبيشاً » فأتاه بخبره ، فجمع بنى تميم ، وقال لهم - فيما قال :

إن ابنى شافه هذا الرجل مشافهة ، وأتانى بخبره ، وكتابه يأمر بالمعروف ، وينهى فيه عن المنكر ، ويأخذ فيه بمحاسن الأخلاق ، ويدعو إلى توحيد الله تعالى ، وخلع الأوثان ، وترك الحلف بالنيران ، وقد حلف « عرف » ذوو

الرأى منكم : أن الفضل فيما يدعو إليه ، وأن الرأى ، ترك ما ينهى عنه .

ثم يقول هذه الكلمات الرائعة :

« إن الذى يدعو إليه محمد ، لو لم يكن ديناً ، لكان فى أخلاق الناس حسناً » .

وسبيل الله كما رآه أكثم :

توحيد الله ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والأخـذ بمحاسن الأخلاق .

وكلمة : الأخذ بمحاسن الأخلاق كلمة جميلة جمعت فاستغرقت ، وشملت فعمت .

أما كلمته الرائعة حقًّا ، السامية حقًّا ، العجيبة فى صدقها وإيجازها وفصاحتها ، فهى قوله :

« إن الذى يدعو إليه محمد ، لو لم يكن ديناً ، لكان فى أخلاق الناس حسناً » .

ولما هاجر المسلمون هجرتهم الأولى فى سبيل الله إلى أرض الحبشة لم يكتف القرشيون منهم بخروجهم وهجرتهم بدينهم تاركين الأهل والوطن والمال . ولكنهم أرسلوا وفداً إلى النجاشى فيه عبد الله بن أبى ربيعة ، وعمرو ابن العاص ، لرد المهاجرين إلى مكة ليعذبوهم من جديد ، ولما التقى الوفد بالنجاشى قال له عمرو بن العاص : إنه قد لجأ إلى بلدك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا فى دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه ، لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم : من آبائهم وأعمامهم ، وعشائرهم لتردهم عليهم ، فهم أعلى بهم عينا « أى أبصر بهم » وأعلم بما عابوا عليهم .

فلما سمع النجاشى كلامهم رأى أن من الحكمة : ألا يسلم إليهم المهاجرين دون أن يسمع كلامهم ، وحجتهم ، فأرسل إلى أصحاب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فدعاهم ، فلما جاءوا قال لهم :

ما هذا الدين الذى قد فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا فى دينى ولا دين أحد من هذه الملل ؟

فكان الذى كلمه : جعفر بن أبى طالب ، قال له :

أيها الملك ، كنا قوماً أهل جاهلية : نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسىء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف : فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا : نعرف نسبه ، وصدقه ، وأمانته ، وعفافه ، فدعانا إلى الله ، لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد وآباؤنا من دونه : من الحجارة والأوثان . .

أمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم ، والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنة ، وأمرنا أن نعبد الله وحده ، لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام .

« وعدد عليه أمور الإسلام » .

فصدقناه ، وآمنا به ، واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده ، ولم نشرك به شيئاً ، وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا . . فعدا علينا قومنا : فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا ، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلادك . .

ولما قرأ عليه صدراً من سورة مريم ، بكى النجاشى ثم قال :

إن هذا والذى جاء به عيسى : ليخرج من مشكاة واحدة .

ثم التفت إلى عبد الله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص فقال لهما :

« انطلقا ، فلا والله لا أسلمهم إليكما » .

لقد علم النجاشى ، فور سماعه ، المبادئ الإسلامية .

« أن هذه المبادئ حق ، وأنها آيات بينات لا يخفى صدقها على أصحاب الفطر السليمة ، وعلم أن ما أتى به محمد ، صلوات الله عليه وسلامه : إنما يصدر من المنبع الذى كانت تصدر عنه رسالة عيسى ، عليه السلام » .

وسبيل الله كما صوره سيدنا جعفر : توحيد الله وعبادته وحده ، وصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء .

وإقامة الصلاة وأداء الزكاة ، والصيام . .

والابتعاد عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة . .

وكل ذلك اتباع لأحسن ما أنزل الله .

(٣)

أول عقد من عقود البيعة

وأول عقد من عقود البيعة عدم الإشراك بالله . .

وحينما يسمع الناس الحديث عن « عدم الإشراك بالله » يتجه ذهنهم - فى الأغلب الأعم منهم - إلى نفى تعدد الآلهة ، إن الذهن يتجه إلى أن هذه العقيدة التى كانت عند اليونان فى عهودهم القديمة من تعدد الآلهة وعند العرب فى جاهليتهم من عبادة الأصنام . . . باطلة . .

لقد جعل اليونان إلهاً لكل ظاهرة من ظواهـر الكون الكبرى ، وكذلك فعل قدماء المصريين فى عامتهم وشعبهم ، وكذلك فعل وثنيو العرب .

بل إن الإنسانية وقد بدأت بالتوحيد الخالص على يد آدم عليه السلام قد انحرفت سريعاً إلى التعدد فأخـذت الأنبيـاء والرسل تنزل تباعاً مبشرة بالتوحيد مجاهدة فى سبيل منع التعدد وفى سبيل القضاء على الوثنية المنتشرة .

ولقد كان عدد الأنبياء والرسل كثيراً كثرة تتناسب والانحراف المتوالى من الإنسانية منذ ظهورها ، لقد نزل الأنبياء جميعاً يبشرون بالتوحيد ، وكان كل نبى يدعو أمته إلى مثل ما دعا محمد صلى الله عليه وسلم الإنسانية جمعاء :

« أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ »(١) .

وسورة يونس وسورة هود والكثير من سور القرآن على وجه العموم تتحدث عن دعوة الرسل قومهم إلى التوحيد : يقول سبحانه :

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىَ قَوْمِهِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ . أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ ، إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ »(٢) .

ويقول سبحانه :

« وَإِلَىَ عادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ ، إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ »(٣) .

---

(١) هود ٢ .

(٢) هود : ٢٥ ٢٦ .

(٣) هود : ٥٠ .

ويقول سبحانه :

« وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صالِحاً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ ، هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيها فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيهِ ، إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ » (١).

وهكذا نرى كل نبي يدعو إلى عدم الشرك بالله أنه يدعو إلى عبادة الله وحده ، فإذا اتجه الذهن إلى عدم تعدد الآلهة ، وإلى الوحدانية فإن هذا الاتجاه طبيعي ، وهو اتجاه حق . .

وهذا النوع من الشرك هو الذي يقول الله سبحانه وتعالى عنه :

« إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشاءُ » .

وهو الذي ينفيه الله منطقياً بقوله :

« لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا ، فَسُبْحانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ » .

وبقوله :

« مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَما كانَ مَعَهُ مِنْ إِلهٍ ، إِذَنْ لَذَهَبَ كُلُّ إِلهٍ بِما خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، سُبْحانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ » .

ولكن التوحيد ليس معناه عدم التعدد فحسب ، كلا . ، وهو وإن كان من معانيه عدم التعدد فإن دائرته تتسع فتشمل أموراً أخرى .

يقول أبو سعيد الخراز :

« فمن شرح ذلك : أن يكون العبد يريد الله عز وجل بجميع أعماله وأفعاله ، وحركاته كلها ظاهرها وباطنها ، لا يريد بها إلا الله وحده ،

---

(١) هود ٦١ .

قائماً بعقله وعلمه على نفسه وقلبه ، راعياً لهمه ، قاصداً إلى الله تعالى بجميع أمره » .

وهـذا الذى يقوله الإمام أبو سعيد الخراز رضى الله عنه هو بعض معانى :

« اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذى خَلَق » .

إن « اقرأ باسم ربك الذى خلق » توحيد خالص ، والتوحيد الخالص لا رياء فيه والله سبحانه وتعالى ، يقول : « أَلاَ للهِ الدِّينُ الْخَالِصُ » .

وإن المادة الأولى من البيعة الإسلامية تعنى فيما تعنى من معان — تجريد القصد لله تعالى فى كل عمل وإلا فلا ثواب ولا قبول للعمل :

« فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً » .

ولقد تحدث القرآن عن الإخلاص والصدق ، وتحدث عنهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما لا يكاد يحصى من النصوص والأحاديث . والتوحيد الخالص والشرك يبـدآن بالنية : يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم مبيناً أن قيمة العمل فى الخير والثواب والقبول تتبع النية :

عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنما الأعمال بالنية » . وفى رواية بالنيات . وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » . رواه البخارى ومسلم ، وأبو داود والترمذى والنسائى .

فإذا صدقت النية استقام أمر المسلم فيما بعد ، وإذا هفا الإنسان هفوة فعليه أن يتدارك الأمر بالتوبة وصدق النية من جديد .

وصدق النية شرط من الشروط التى يترتب عليها قبول العمل .

عن الضحاك بن قيس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

إن الله تبارك وتعالى يقول : « أنا خير شريك ، فمن أشرك معى شريكاً فهو لشريكى ، يأيها الناس أخلصوا أعمالكم ، فإن الله تبارك وتعالى لا يقبل من الأعمال إلا ما خلص له ، ولا تقولوا هذه لله وللرحم ، فإنها للرحم ، وليس لله فيها شيء ، ولا تقولوا هذه لله ولوجوهكم ، فإنها لوجوهكم ، وليس لله منها شيء » . رواه البزار بإسناد لا بأس به ، والبيهقى .

وعن أبى أمامة قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أرأيت رجلا غزا يلتمس الأجر والذكر ، ماله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا شيء له » فأعادها ثلاث مرات ، ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا شيء له » ثم قال صلى الله عليه وسلم : « إن الله عز وجل لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً ، وابتغى (به) وجهه .

رواه أبو داود والنسائى بإسناد جيد .

والواقع أن الإسلام يعلق أهمية كبيرة على إخلاص النية لله سبحانه وتعالى فإن فى إخلاصها لله صدق السريرة وطهارة القلب وفيها انتفاء التملق والزلفى وبها تنتفى الزلة وينتفى الزيف والرياء ومن أجل ذلك حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم من الرياء تحذيراً شديداً ، وحث على الصدق والإخلاص فى صور شتى .

والحديث التالى قد روى بصورة متعددة ، وروى معناه بصور كثيرة ، ورواه ثقات المحدثين :

عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد ، فأتى به ،

فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت ، قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقال : هو جرىء ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار . ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت فيك القرآن . قال : كذبت ولكنك تعلمت ليقال عالم ، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ ، فقد قيل،ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار . ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال ، فأتى به ، فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك ، قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال هو جواد ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار » . رواه مسلم والنسائى ، ورواه الترمذى وحسنه ، وابن حبان فى صحيحه وكلاهما بلفظ واحد .

ولقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وحيداً فريداً يدعو إلى التوحيد بكل معانيه ، ويعلن الحق فى وجه الباطل ، ويدعو إلى الله فى وسط كله شرك ،ويدعو إلى تحطيم الأصنام فى بيئة تعبد الأصنام ، ودعوته صلوات الله عليه وسلامه ، ورسالته إلى العالم أجمع : إنما كان أساسها التوحيد ، والإسلام إنما هو دين التوحيد ، وليس للتوحيد معنى إلا الايمان الصادق اليقينى بأن المهيمن على الكون والمتصرف فيه إنما هو الله سبحانه ، وإنه لو اجتمع أهل السموات والأرض على أن ينفعوا أى إنسان بشىء ما نفعوه إلا بشىء قد قدره الله له ، ولو اجتمع أهل السموات والأرض على أن يضروا أى إنسان بشىء ، ما ضروه إلا بشىء قد قدره الله

وإذا كان الأمر كذلك ، وهو كذلك لا محالة ، فإنه لا يجتمع الإيمان الصادق والخوف فى قلب المؤمن .

التوحيد والشجاعة الأدبية :

والتوحيد إذن هو الأساس الأول الأصيل للشجاعة الأدبية كما أنه الأساس لحافز لكثير من الفضائل أو لكل الفضائل .

وتثبيتاً للشجاعة الأدبية ، وحفاظاً على استمرارها بيَّن الله تعالى الأسباب التى تجعل الشخص يجبن عن قول الحق ويتراجع فى إعلان الصواب ، وترجع هذه الأسباب إلى أمرين :

الأمر الأول : هو ما يمكن أن يعبر عنه بهم الرزق أو خوف الفقر ، وقد بين الله تعالى ، أن الرزق مقسوم ، وأنه محدود ، وأنه ما كان لك فسوف يأتيك ، وما كان لغيرك فلن تناله .

« وَفِى السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ، فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ » .

« وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا . وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا . كُلٌّ فِى كِتَابٍ مُبِينٍ » .

ومن الحق أن الإسلام يحث على العمل ويشجع على الأخذ بالأسباب وإن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة . « ولأن يأخذ أحدكم حبله ، فيحتطب فيبيع فيأكل ويتصدق خير له من أن يتكفف الناس ، واليد العليا خير من اليد السفلى » .

ومع ذلك فإن الرزق فى يد الله ، ولن يمنع الرزق مانع مهما كان جبروته وسلطانه ، والله غالب على أمره ، وهو سبحانه القوى العزيز القهار .

أما الأمر الثانى الذى يخذل بعض الناس عن الشجاعة الأدبية ، فإنه خوف الموت ، وهو خوف لا موضع له ، فالله قد حدد الآجال ، ولو كان الناس فى بروج مشيدة لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم التى يقتلون فيها : « فإذا جاء أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ » .

فالآجال والأرزاق بيد الله ، وكل فكرة أو رأى أو همس خافت فى النفس يخالف ذلك ، فإنما هو شرك .

وانظر إلى هذه الصورة الكريمة للشجاعة الأدبية التى ربتها التعاليم القرآنية ، وهى أن يقوم رجل بين يدى سليمان بن عبد الملك فيقول له سأطلق لسانى بما خرست عنه الألسن تأدية لحق الله تعالى ، إنه قد اكتنفك رجال أساءوا الاختيار لأنفسهم ، وابتاعوا دنياك بدينهم ، ورضاك بسخط ربهم ، وخافوك فى الله ولم يخافوا الله فيك ، فهم حرب للآخرة ، وسلم للدنيا ، فلا تأمنهم على من ائتمنك الله عليه فإنهم لم يألوا الأمانة تضييعاً ، والأمة كسفاً وخسفاً ، وأنت مسئول عما اجترموا ، وليسوا مسئولين عما اجترمت ، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك . فإن أعظم الناس عند الله غبناً من باع آخرته بدنيا غيره . .

وإن من الصور الكريمة للشجاعة الأدبية ، أن يتقبل الإنسان الحق ، وكما تكون الشجاعة الأدبية ، قول الحق ، تكون قبول الحق .

وإذا صدقت النية كان الإخلاص ، وكانت الثقة فى الله ، وكان الاتجاه الدائم نحوه . فكانت العزة به .

وللإخلاص أهميته الكبرى فى الإسلام ، حتى لقد نادى رجل مرة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله : ما الإيمان ؟

قال : الإخلاص . .

وعن معاذ بن جبل أنه قال – حين بعث إلى اليمن – : يا رسول الله أوصني ، قال صلى الله عليه وسلم : « أخلص دينك يكفك العمل القليل » رواه الحاكم . وقال صحيح الإسناد :

وإذا ما صدقت النية وتوافر الإخلاص تقبل الله العمل ومنح الله صاحبه الثواب ، وكان عمله وسيلة له فى النجاة فى الدنيا والآخرة .

عن ابن عمر رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم ، حتى أواهم المبيت إلى غار ، فدخلوه ، فانحدرت صخرة من الجبل ، فسدت عليهم الغار ، فقالوا : إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم .

فقال رجل منهم : اللهم كان لى أبوان شيخان كبيران ، وكنت لا أغبق قبلهما أهلا ولا مالا ، فنأى[1] بى طلب شجر يوماً فلم أرح[2] عليهما حتى ناما فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين ،فكرهت أن أغبق قبلهما أهلا أو مالا ، فلبثت والقدح على يدى أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر – زاد الرواة « والصبية يتضاغون عند قدمى » – فاستيقظا فشربا غبوقهما ، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ، ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة ، فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج منها . .

قال النبى صلى الله عليه وسلم : قال الآخر : اللهم كانت لى ابنة عم كانت أحب الناس إلىّ فأردتها عن نفسها ، فامتنعت منى ، حتى ألمت [3] بها سنة من السنين ، فجاءتنى ، فأعطيتها عشرين ومائة دينار ، على أن تخلى

---

(١) نأى بى : بعد بى .

(٢) لم أرح عليهما : يريد لم أرجع إليهما .

(٣) ألمت : نزلت . نزلت بها سنة من السنين الجدباء .

بينى وبين نفسها ففعلت ، حتى إذا قدرت عليها قالت : لا يحل لك أن تفض الخاتم إلا بحقه ، فتحرجت[1] من الوقوع عليها ، فانصرفت عنها ، وهى أحب الناس إلى ، وتركت الذهب الذى أعطيتها ، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ، فأفرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة ، غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها .

قال النبى صلى الله عليه وسلم : وقال الثالث : اللهم « إنى » استأجرت أجراء وأعطيتهم أجرتهم غير رجل واحد ترك الذى له وذهب ، فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال ، فجاءنى بعد حين فقال لى : يا عبد الله أد إلىّ أجرى ؟ فقلت : كل ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق ، فقال : يا عبد الله لا تستهزئ بى . فقلت : إنى لا أستهزئ بك ، فأخذه كله ، فساقه كله ، فلم يترك منه شيئاً . اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأفرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة ، فخرجوا يمشون .

وفى رواية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : بينما ثلاثة نفر[2] ممن كان قبلكم يمشون إذ أصابهم مطر ، فآووا إلى غار ، فانطبق عليهم ، فقال بعضهم لبعض : إنه والله يا هؤلاء لا ينجيكم إلا الصدق ، فليدع كل رجل منكم بما يعلم أنه قد صدق فيه ، فقال أحدهم : اللهم إن كنت تعلم أنه كان لى أجير عمل لى على فرق من أرز فذهب وتركه ، وإنى عمدت إلى ذلك الفرق فزرعته فصار من أمره إلى أن اشتريت منه بقراً ، وأنه أتانى يطلب أجره ، فقلت له : اعمد إلى تلك البقر فإنها من ذلك الفرق ، فساقها ، فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا ، فانساحت عنهم

---

(١) تحرجت : خفت أن أرتكب الحرج ، وهو الإثم .

(٢) النفر : الجماعة من ثلاثة إلى عشرة .

الصخرة . « فذكر الحديث قريباً من الأول » رواه البخارى والنسائى » .

وقوله : « وكنت لا أغبق قبلهما أهلا أو مالا » ، الغبوق بفتح الغين المعجمة : هو الذى يشرب بالعشى .

ومعناه كنت لا أقدم عليهما فى شرب اللبن أهلا ولا غيرهم .

يتضاغون بالضاد والغين المعجمتين : أى يصيحون [1] من الجوع .

السنة : العام المقحط الذى لم تنبت الأرض فيه شيئاً ، سواء نزل غيث أم لم ينزل .

تفض الخاتم : هو بتشديد الضاد المعجمة ، وهو كناية عن الوطء .

الفرق – بفتح الفاء والراء : مكيال معروف .

فانساحت : هو بالسين والحاء المهملتين ، أى تنحت الصخرة وزالت عن فم الغار [2] .

وعن أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده لا شريك له ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، فارقها والله عنه راض » . رواه ابن ماجه والحاكم ، وقال : صحيح على شرط الشيخين والعمل الذى يتقبله الله ويشترط النية الصادقة فيه إنما هو العمل الذى يكون فى الإطار الربانى ، إنه العمل الذى يقوم به الإنسان تلبية لتربية المربى تلبية واعية شاعرة بأنها استجابة للأمر الإلهى فيما يتعلق بالإيجاب ، أو للنهى الإلهى فيما يتعلق بالسلب أى أنها تحقق ، فى جانبى

---

(١) فى نسخة « يضجون » بالضاد المعجمة والجيم ، والمعنى قريب . عن كتاب الترغيب والترهيب .

(٢) انظر فى ذلك كتاب الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى .

السلب والإيجاب من العمل ، لاقرأ باسم ربك الذى خلق .

وهذا العمل ، فى اليسير منه والعظيم إنما هو ما أتى به الوحى فى القرآن وما فصلته السنة النبوية الكريمة : العملية منها والنظرية فإذا ما خرج الأمر عن هذا الإطار فى النية أو فى الفعل فقد خرج عن أن يكون « قراءة باسم ربك » والبيعة إنما هى بيعة للرسول صلى الله عليه وسلم .

والله سبحانه وتعالى يقول :

« إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللهَ » .

ويقول : « مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللهَ » .

والقرآن الكريم إذن ، وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمله ، كل ذلك يمثل وحدة واحدة فى الإسلام .

ومن مواد البيعة التى صيغت فى أسلوب رقيق وفى إيجاز جميل قوله تعالى :

« ولا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ » ..

والمعروف هو الخير الذى انطوى فى ثنايا التعاليم الإلهية ، وهو يتضمن كل خير ، وبتحقيقه تتحقق الفضيلة فى أجمل صورها .

(٤)

والآن يأتى السؤال : إذا صدقت النية واتبع الإنسان أحسن ما أنزل إليه من ربه فى العمل ، فما هو السبيل إلى اتباع أحسن ما أنزل الله فى القول ؟

ما هى القراءة باسم ربك فى القول ؟

إن الله سبحانه وتعالى بين لنا الإحسان فى القول ، كما بين لنا الإحسان فى العمل . يقول سبحانه فى الجانبين :

« وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعا إِلى اللهِ وعَمِلَ صَالِحاً ، وقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ » .

ويقول سبحانه :

« إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنا اللهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ، نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ ، وَلَكُمْ فِيها ما تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ ، نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ » .

ولقد ضرب الله لنا المثل فى الكلمة الطيبة ، وفى الكلمة الخبيثة فقال سبحانه :

« أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً ، كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثابِتٌ وَفَرْعُها فِي السَّماءِ ، تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها ، وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ ما لَها مِنْ قَرارٍ . يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ ، وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ ، وَيَفْعَلُ اللهُ ما يَشاءُ »[1] .

واتباع أحسن ما أنزل الله فى القول ، إنما هو الدعوة إلى الله ، بنص الآية الكريمة ، وإعلان الإسلام :

« وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ » .

ومن ذلك الذكر ، والدعاء .

---

(١) سورة إبراهيم – الآيات ٢٤ ٢٧